

رسالة في لو الامتناع لابن برّي المتوفى سنة ٥٨٢ هـ

تحقيق الدكتور صالح حاتم الضامن
كلية الآداب - جامعة بغداد

المؤلف:

أبو محمد عبدالله بن أبي الوحش برّي بن عبدالجبار بن برّي المقدسيّ أصلاً، المصريّ مولداً، الشافعيّ مذهباً.

ولد في مصر سنة ٤٩٩ هـ. وطلب العلم منذ الخامسة عشرة من عمره، ونبغ في سنّ مبكرة فلفت إليه الأنظار حتى اختير لتصفح ديوان الإنشاء، وهو في الحادية والعشرين من عمره، فكان (لا يصدر كتاب عن الدولة إلى ملك من ملوك النواحي إلاّ بعد أن يتصفحه ويصلح ما لعله فيه من خلل خفيّ)^(١).

وأصبح من أئمة عصره في النحو واللغة والرواية، وكان شيخ العربية بمصر في زمانه، إلى أن توفي، رحمه الله تعالى، سنة ٥٨٢ هـ^(٢).

(١) وفيات الأعيان ١٠٨/٣

(٢) ينظر عن ابن بري المصادر الآتية، وهي مرتبة ترتيباً تاريخياً:

معجم الأدباء ٥٦/١٢

إنباه الرواة ١١٠/٢

التكملة لوفيات النقلة ٥٨/١

وفيات الأعيان ١٠٨/٣

إشارة التعيين ١٦١

سير أعلام النبلاء ١٣٦/٢١

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ٢٤٥/٧

الوافي بالوفيات ٨٠/١٧

مرآة الجنان ٤٢٤/٣

شيوخه:

- علي بن جعفر بن علي المعروف بابن القطّاع، المتوفى سنة ٥١٥ هـ.
- مرشد بن يحيى المدني، المتوفى سنة ٥١٧ هـ.
- محمد بن بركات بن هلال السعدي، المتوفى سنة ٥٢٠ هـ.
- محمد بن أحمد الرازي المعروف بابن الخطاب، المتوفى سنة ٥٢٥ هـ.
- محمد بن عبد الملك الشنتريني المعروف بابن السراج، المتوفى سنة ٥٤٥ هـ.
- محمد بن حمزة بن أحمد المعروف بابن العرقي، المتوفى سنة ٥٥٧ هـ.
- أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الحطيئة، المتوفى سنة ٥٦٠ هـ.
- عبد الجبار بن محمد بن علي المعافري الموقى سنة ٥٦٦ هـ.
- علي بن عبدالرحيم السلمي المعروف بابن العصار، المتوفى سنة ٥٧٦ هـ.
- عثمان بن علي بن عمر السرقوسي الصقلي، المتوفى بعد سنة ٥٧٦ هـ.
- علي بن عبدالرحمن بن محمد الحضرمي.

تلاميذه:

درس على ابن بري وروى عنه علماء كثيرون، من لغويين ونحويين وقراء ومفسرين ومحدثين، واستفادت من علمه الأسرة الأيوبية، وفي مقدمتهم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي، المتوفى سنة ٥٨٩ هـ.

وقد أحصى تلامذته تلميذي حاكم مالك في رسالته: ابن بري وجهوده

طبقات الشافعية للسبكي ١٢١/٧

طبقات الشافعية للأسنوي ٢٦٧/١

البلغة في تاريخ أئمة اللغة ١٠٦

طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٣٥٩/١

النجوم الزاهرة ١٠٣/٦

بغية الوعاة ٣٤/٢

شذرات الذهب ٢٧٣/٤

اللغوية ص ٧٠ - ٩١، فأغناني عن ذكرهم.

مؤلفاته:

المطبوعة:

- ١- التنبيه والإيضاح عما وقع في الصحاح.
- ٢- حاشية على تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة للجواليقي.
- ٣- حاشية على المعرب للجواليقي.
- ٤- شرح شواهد الإيضاح لأبي علي الفارسي.
- ٥- غلط الضعفاء من الفقهاء.
- ٦- اللباب في الرد عن ابن الخشاب.
- ٧- مسائل منثورة في التفسير والعربية والمعاني.
- ٨- مسألة في أقسام إذا وجوبها والعامل فيها.
- ٩- مسألة في جمع حاجة: منشورة في كتاب الأشباه والنظائر للسيوطي.
- ١٠- مسألة في حدّ الكلام على أم: منشورة في كتاب سفر السعادة لعلم الدين السخاوي.
- ١١- مسألة في الكلام على أم: منشورة في كتاب سفر السعادة أيضاً.

المخطوطة:

- ١- حاشية على درة الغواص للحريري.
- ٢- رسالة في لو الامتناع ، وهي التي نقدّمها في هذا البحث.
- ٣- فصل في شروط الحال وأحكامها وأقسامها: انتهينا من تحقيقه.
- ٤- مسائل سُئل عنها: انتهينا من تحقيقها.

المؤلفات التي لم نقف عليها:

- ١- الاختيار في اختلاف أئمة الأمصار.
- ٢- حاشية على المؤلف والمختلف: نقل عنها البغدادي في خزنة الأدب.
- ٣- شرح أدب الكاتب لابن قتيبة.
- ٤- الفروق: نقل الزبيدي في تاج العروس.

قصيدتان نسبتا إليه غلطاً:

- ١- القصيدة الحالية: نسبتها إليه مصطفى حجازي في مقدمة (التبويه والإيضاح)، نقلاً عن لسان العرب (حول). وهذه النسبة غير قاطعة، فقد جاء في اللسان: قال ابن بري: وهذه أبيات تجمع معاني الحال.
- ٢- القصيدة الخالية: نسبتها إليه مصطفى حجازي في مقدمة (التبويه والإيضاح) أيضاً. وهو وهمٌ، لأن هذه القصيدة رواها ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ، وهي في مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي المتوفى سنة ٣٥١هـ، والصناعتين لأبي هلال العسكري المتوفى بعد سنة ٣٩٥هـ.

الرسالة

تناول ابن بري في هذه الرسالة (لو) و (لولا) اللتين تفيدان الامتناع. وهي على صغرها أثر نادر من آثار ابن بري، لم تُنشر من قبل ولم يُشر إليها أحد ممن ترجم لابن بري، من القدماء والمحدثين.

وقد وقفت على هذه الرسالة في مجموع نفيس فريد تحتفظ به مكتبة شهيد علي في تركيا تحت رقم ٢٧٤٠، وافاني به مشكوراً الأخ الدكتور حسين تورال.

ويقع هذا المجموع في ست وخمسين ورقة، في كل ورقة صفحتان، وفي كل صفحة خمسة عشر سطرًا.

وشغلت هذه الرسالة الأوراق ٣١ أ - ٣٣ أ.

وكتب المجموع بخط واضح مقروء، وتاريخ نسخه سنة ٧٠٠هـ، كما جاء في آخر الرسالة.

وقد أرفقت بنشرتي هذه صورة الصفحة الأولى من الرسالة. والحمد لله أولاً وآخراً، إنه نعم المولى ونعم النصير.

قال الشيخ الإمام العلامة جمال الدين بن بَرِّي، رحمه الله وَرَضِيَ عنه، وعن المسلمين أجمعين:

مسألة

لو تدلُّ على امتناع الشيء لامتناع غيره^(٣). فإذا وليها مثبتان امتنع إثباتهما، نحو: لو قام زيد لأكرمته.

وإذا وليها منفيان امتنع نفيهما (٣١ب) فانقلبت إثباتاً، نحو: لو لم يقم لم أقم.

وإذا كان أحدهما مثبتاً، والآخر منفيّاً امتنع النفي من المنفي فصار إثباتاً، وامتنع الإثبات من المثبت فصار نفيّاً ، نحو: لو لم يقم لأكرمته، وبالعكس.

فإذا دخلت عليها (لا) انقلب ما يليها إثباتاً بلا، ووجب أن يليها الاسم، لأنه الذي يدلُّ على مُطلق الوجود، وبقي ما بعده منفيّاً على أصل لو.

(٣) ينظر في لو: المقتضب ٧٥/٣، وشرح المفصل ١٥٥/٩، ورتف المباني ٢٨٩، والجنى الداني ٢٧٢، ومغني اللبيب ٢٨٣، وهمع الهوامع ٤٢/٢.

فذلك قلنا: لولا تَدُلُّ على امتناع الشَّيءِ لوجودِ غَيْرِهِ^(٤)، أي: امتناع جوابِها لوجودِ ما يليها وامتناعه، إمَّا لمُطَّلَق وجود الاسمِ فيجبُ حَذْفُ خَبَرِهِ، نحو: لولا زَيْدٌ لأَكْرَمْتُكَ، وإمَّا لِصِفَةٍ خاصَّةٍ في الاسمِ فيجبُ ذِكْرُ الخَبَرِ، ويكونُ الخَبَرُ في معنى الصفةِ القائمةِ بالاسمِ، نحو: (لولا قومُك حديثو عهدٍ بالجاهليَّةِ لَرَدَدْتُ الكَعْبَةَ إلى قواعدِ إبراهيمٍ)^(٥) ولولا بُنُوها حَوْلَها لَخَبَطْتُها^(٦).

ثمَّ انظرْ إنْ كانَ جوابُها مُطلقاً لا قيِّدَ معه، أو معه قيِّدٌ خاصٌّ، نحو: لولا (٣٢ أ) زَيْدٌ لَضَرَبْتُ، ولولا زَيْدٌ لَضَرَبْتُ عَمراً. فالامتناعُ واريْدُ على أصلِ الفِعلِ، لكنَّه في الأوَّلِ خارجٌ عن الوجودِ بنفسه، وفي الثَّاني خارجٌ عن الوجودِ بمُتعلِّقه الخاصِّ، لأن الامتناعَ إذا صادفَ الماهيَّةَ مُطلقاً وَقَعَ عليها، وإذا صادفَها مقيدةً بقيِّدٍ خاصٍّ وَقَعَ عليها باعتبارِ تعلُّقها بمعنى، والفِعلُ يعمُّ إذا تعلَّقَ بعامٍّ، ويختصُّ إذا تعلَّقَ بمُختصٍّ، لأنَّكَ لو قُلْتَ: أيُّ عبيدي ضَرَبْتُهُ فهو حُرٌّ، فَضَرَبَ منهم جماعةٌ على التَّعاقبِ لا يُعْتَقُ إلا الأوَّلُ؛ لأنَّ الضَّرْبَ مُقيِّدٌ بتقييدِ فاعلهِ لأنَّه للمخاطبِ.

وإذا قُلْتَ: أيُّ عبيدي ضَرَبْتَكَ فهو حُرٌّ، فَضَرَبْتُهُ منهم جماعةٌ، عُتِقُوا؛ لأنَّ الضَّرْبَ فيه عامٌّ لعمومِ فاعلهِ، وهو ضميرُ أيٍّ، وأيُّ عامَّةٌ.

وإنْ كانَ جوابُها معه قيِّدٌ عامٌّ، فالامتناعُ واقعٌ على الهيئَةِ الاجتماعيَّةِ من

(٤) ينظر في لولا: المقتضب ٧٣/٣، والإنصاف ٧٠، وأمالي ابن الحاجب ٣٠٩، ورسف

المباني ٢٩٢، والجنى الداني ٥٩٧، ومغني اللبيب ٣٠٢.

(٥) صحيح البخاري ١٧١/٢، وصحيح مسلم ٩٦٨، مع خلاف في الرواية. وينظر: شواهد

التوضيح والتصحيح ١٢٠، ومغني اللبيب ٦٦٩، وكشف الخفاء ٢١٥/٢.

(٦) صدر بيت لكعب بن مالك في المحاسن والأضداد ١٣٩، وربيع الأبرار ١٤٣/٢، وشرح

أبيات مغني اللبيب ٣٠٩/٦، وعجزه: كَخَبَطَةَ عصفورٍ ولم أتلعثم.

وُنسب إلى الزبير بن العوام في تخلص الشواهد ٢٠٨، ومغني اللبيب ٤٨٧، والمقاصد

النحوية ٥٧١/١، وشرح شواهد المغني ٨٤١. وفي المخطوطة: لخطبتها. وهو خطأ نَبَّه

عليه القدماء.

المتعلق، لا على أفراد ذلك (٣٢ ب) المتعلق، ويبقى أصل الفعل حاصلًا، كقولك: لولا زيد لضررت كل واحد. فالممتنع إنما هو الضرب الواقع على الكل لا على الأفراد، بدليل صحة قولك: لولا زيد لضررت كل أحد، لكن لأجله ضررت بعض الأحدثين. فالامتناع هنا واردٌ على أفراد الأحدثين، لا على أصل الضرب.

ومثله قوله تعالى: "ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد" (٧). ليس المراد امتناع أصل التزكية، بل امتناعها في عموم كل أحد، لأن (أحد) نكرة في سياق النفي، فكأنه قيل: ما زكى كل أحد منكم. والمعنى: لكن بسبب فضل الله زكى بعضكم، وهم المؤمنون، دون غيرهم. فأصل التزكية حاصل، وعمومها في متعلقها ممتنع.

ومن القسم الأول قوله تعالى: " لولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسككم في ما أفضتكم فيه عذاب عظيم" (٨)، وهو نكرة في سياق الإثبات، فلا عموم لها فانتهى مسهم العذاب، لأنه قيد بقيد (٣٣ أ) خاص. وكقوله في الحديث: (لولا علي لهلك عمر) (٩). فالممتنع الهلاك، لأن الامتناع واردٌ على هيئة مطلقة، ولم يصادف سواها فيمنعه. والله تعالى أعلم.

ونجز بتاريخ الثالث من شهر جمادى الآخرة سنة سبعمئة، والحمد لله رب العالمين.

(٧) النور ٢١. وينظر: البحر المحيط ٤٣٩/٦.

(٨) النور ١٤. وينظر: زاد المسير ٢٠/٦-٢١، والبحر المحيط ٢٨/٦.

(٩) شرح اللمع للشيرازي ٦٩٢. ولم أقف على هذا الأثر في كتب الحديث.

المصادر

المصحف الشريف

- أمالي ابن الحاجب: عثمان بن عمر، ت ٦٤٦هـ، تحقيق د. فخر صالح سليمان، بيروت ١٩٨٩.
- الإنصاف في مسائل الخلاف: الأنباري، أبو البركات عبدالرحمن بن محمد، ت ٥٧٧هـ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مصر ١٩٦١.
- البحر المحيط: أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، ت ٧٤٥هـ، مطبعة السعادة في مصر ١٣٢٨هـ.
- تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد: ابن هشام الأنصاري، عبدالله بن يوسف، ت ٧٦١هـ، تحقيق د. عباس الصالحي، بيروت ١٩٨٦.
- الجنى الداني في حروف المعاني: المرادي، حسن بن قاسم، ت ٧٤٩هـ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل، حلب ١٩٧٣.
- ربيع الأبرار: الزمخشري، محمود بن عمر، ت ٥٣٨هـ، تحقيق د. سليم النعيمي، بغداد ١٩٧٦.
- رصف المباني في شرح حروف المعاني: المالقي، أحمد بن عبد النور، ت ٧٠٢هـ، تحقيق أحمد محمد الخراط، دمشق ١٩٧٥م.
- زاد المسير في علم التفسير: ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، ت ٥٩٧هـ، دمشق ١٩٦٥.

- شرح أبيات مغني اللبيب، البغدادي، عبدالقادر بن عمر، ت ١٠٩٣هـ، تحقيق عبدالعزيز رباح وأحمد يوسف دقاق، دمشق ١٩٧٣ - ١٩٨١.
- شرح شواهد المغني: السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر، ت ٩١١ هـ دمشق ١٩٦٦.
- شرح اللمع: أبو إسحاق الشيرازي، إبراهيم بن علي، ت ٤٧٦هـ، تحقيق عبدالمجيد تركي، بيروت ١٩٨٨.
- شرح المفصل : ابن يعيش، يعيش بن علي، ت ٦٤٣هـ، الطباعة المنيرية، مصر.
- شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح: ابن مالك الأندلسي، جمال الدين محمد، ت ٦٧٢هـ، تحقيق د. طه محسن، بغداد ١٩٨٥.
- صحيح البخاري: البخاري، محمد بن إسماعيل، ت ٢٥٦هـ، مطبعة الشعب، القاهرة ١٣٧٨هـ.
- صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج، ت ٢٦١هـ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، البابي الحلبي بمصر ١٩٥٥.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: العجلوني، إسماعيل بن محمد، ت ١١٦٢هـ، تصحيح أحمد القلاش، بيروت ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م.
- المحاسن والأضداد: الجاحظ، عمرو بن بحر، ت ٢٥٥هـ، نشر فوزي عطوي بيروت ١٩٦٩.
- مغني اللبيب ابن هشام الأنصاري، تحقيق د. مازن المبارك ومحمد علي

حمدالله، دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٤.

- المقاصد النحوية: العيني، محمود بن أحمد، ت ٨٥٥هـ، بحاشية خزانة الأدب
للبيغدادي، بولاق ١٢٩٩هـ.

- المقتضب: المبرد، محمد بن يزيد، ت ٢٨٥ هـ، تحقيق محمد عبدالخالق
عضيمة، القاهرة.

- همع الهوامع: السيوطي، تحقيق د. عبدالعال سالم مكرم ، الكويت ١٩٧٥.

- وفيات الأعيان: ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، ت ٦٨١ هـ، تحقيق
د.إحسان عباس، بيروت.

